جامع السلطان أحمد .. فن العمارة الإسلامية

جامع السلطان العثماني أحمد الأول من أهم المعالم الأثرية التي تزخر بروعة وجمالية العمارة الإسلامية، وما زال الجامع يحكي للأجيال المتعاقبة على فن الزخرفة والعمارة الإسلامية في العهد العثماني

في ميدان السلطان أحمد يقع جامع السلطان أحمد، في اسطنبول أكبر مدينة في تركيا وعاصمة الدولة العثمانية من (1453 إلى 1923). اشتهر المسجد باسم المسجد الأزرق نسبة إلى البلاط الأزرق الذي يزين حوائطه، حيث تغطي جدران المسجد 21043 بلاطة خزفية تجمع أكثر من خمسين تصميماً، وتشغل الزخارف المدهونة كل جزء من أجزاء المسجد، وقد أضفى لونها الأزرق على جو المسجد من الداخل إحساساً قوياً بسيطرة هذا اللون.

تم بناء المسجد ما بين 1609 و 1616 أثناء حكم السلطان العثماني أحمد الأول، وكالعديد من المساجد الأخرى يضم المسجد مقبرة للسلطان أحمد، مدرسة للتعليم الديني ومستشفى للعجزة، والمعاقين وغيرها. ما زال المسجد تؤدى فيه الصلوات، وهو من أهم المعالم التي تجذب السياح لتركيا .

بعد عقد معاهدة زيتفاتوروك والنتيجة غير المرغوبة في الحروب مع الدولة الصفوية، قرر السلطان أحمد الأول بناء مسجد ضخم في اسطنبول، حيث كان أول مسجد سلطاني يُبنى منذ أكثر من أربعين عاماً. بينما كان السلاطين السابقين يعملوا على دفع المال لبناء مساجدهم اعتماداً على غنائم الحروب، قام السلطان أحمد بسحب أموال من خزانة الدولة لبناء المسجد، وذلك لعدم إحرازه أي نصر يذكر على أعدائه، مما عمل على إثارة غضب علماء الدين.

بناء المسجد كان لابد أن يتم في مكان قصر الأباطرة في مواجهة آيا صوفيا (والذي كان في ذلك الوقت أكبر مسجد في اسطنبول) وهيبودروم القسطنطينية، المكان الذي كان يحمل أهمية رمزية كبيرة كمركز ثقافي ورياضي للقسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية في الماضي. أجزاء كبيرة من الجزء الجنوبي من المسجد مُقامة على أساس ومدافن القصر العظيم. العديد من القصور كانت مبنية بالفعل هناك، أكثرهم شهرة قصر صقوللي محمد باشا، لذلك استلزم شراؤهم أولًا بثمن باهظ، والقيام بإزالتهم بعد ذلك. أجزاء كبيرة من السفندون (المنبر المقوس ذي البنية على شكل حرف U من الهيبودروم) تمت إزالتها لإفساح المجال للمسجد الجديد.

بدأ بناء المسجد في آب/ أغسطس 1609 عندما أتى السلطان أحمد بنفسه وقام بأول ضربة فأس في بناء المسجد؛ وبهذا العمل أوضح نيته لأن يكون هذا المسجد هو الأول في دولته، حيث قام بتعيين صاحب السمو الملكي المهندس صدفكار محمد آغا تلميذ ومساعد المهندس المشهور معمار سنان ليكون مسؤولاً عن البناء. تنظيم العمل تم وصفه بصورة دقيقة التفاصيل في 8 مجلدات، وهي حالياً موجودة بمكتبة قصر طوب قپو. جرت مراسم الافتتاح في عام 1617 (على الرغم من أن الكتابة المنقوشة على باب المسجد تقول 1616). لم يكتمل بناء المسجد في السنة الأخيرة من فترة حكم السلطان أحمد الأول، وقام بدفع التكاليف الأخيرة لاستكمال البناء خليفته مصطفى الأول. ويعتبر المسجد الأزرق واحد من أروع الآثار في العالم.

صورة المسجد وضعت على العملة التركية من فئة 500 ليرة في الفترة بين عامي 1953 و1967.

وكان تصميم المسجد هو ذروة نتاج قرنين من تطوير مساجد الدولة العثمانية وكنائس الإمبراطورية البيزنطية. ففيه يظهر الدمج لبعض العناصر البيزنطية في التصميم من كنيسة آيا صوفيا الموجودة بجانبه، بالإضافة لعناصر العمارة الإسلامية التقليدية، حيث يُعتبر آخر أكبر مسجد يُجسد العمارة العثمانية. قام المهندس المصمم للمسجد بتطبيق أفكار أستاذه سنان بدقة شديدة والذي كان يهدف لجعله ضخم. فخم وعظيم ولكنه أفتقر إلى هذا النوع من التفكير الإبداعي للمسجد من الداخل .

وتبلغ مساحة المسجد ما يعادل 64 × 72 متراً، وقطر قبته الرئيسية 23.50 متراً، ويبلغ ارتفاعها 43 متراً، وترتكز على أربع دعائم اسطوانية، قطر الواحدة منها خمسة أمتار.

المظهر الخارجي للمسجد

الواجهة الأمامية الفسيحة لفناء المسجد بُنيت على نفس نمط واجهة مسجد السليمانية، باستثناء إضافة المئذنتان في زاوية القباب. فناء المسجد يبلغ في مساحته مساحة المسجد نفسه من الداخل وهو محاط برواق معمد متصل تعلوه مجموعة من القباب الصغيرة، ويوجد على جانبيه مكان للوضوء. أما بالنسبة للنافورة السداسية في المنتصف فهي صغيرة نوعاً ما مقارنة بحجم الفناء. البوابة الضيقة التي تصل بك لفناء المسجد تبرز من الخارج بصورة معمارية فنية، حيث تحتوي على مقرنصات تزين مدخلها وفي أعلاها قبة صغيرة.

وبني هذا المسجد من عدة مستويات إذ يقع في أعلى المستوى الأولى القبة و يبلغ ارتفاعها 33 متر وقطرها 43 متر.

سلسلة حديدة ثقيلة مُعلقة في الجزء الأعلى من مدخل الساحة في الجزء الغربي. فقط السلطان هو من كان يستطيع دخول هذه المنطقة ممتطياً جواده. السلسلة الحديدة كانت موضوعة في ذلك المكان، وكان السلطان يعمل على إيماءة رأسه كل مرة يدخل فيها ساحة المسجد، كي لا تصطدم بالسلسلة. هذه الإيماءة الرمزية من السلطان لتأكيد تضاءل الحاكم مقارنة بعظمة الإله.

من الداخل

تغطي جدران المسجد 21043 بلاطة خزفية، مصنوعة يدوياً في مدينة إزنيك (نيقية قديماً) بأكثر من خمسون تصميم مختلف لأزهار الزنبق. البلاطات الموجودة في الأجزاء السفلى من المسجد ذات تصاميم تقليدية، بينما في الأجزاء العليا من المسجد نجد تصاميمها مزخرفة بأشكال من الأزهار، الفواكه وأشجار السرو. صُنعت البلاطات بإشراف رئيساً الخزافون في إزنيك جزار حاجي وباريس أفندي من أقانوس (قپادوقيا). السعر الذي تم دفعه لكل بلاطة حُدد بمرسوم من السلطان، وبصورة عامة ومع مرور الوقت زاد سعر هذه البلاطات. وللمحافظة على ثبات السعر الذي تم تحديده انخفضت جودة البلاطات المستخدمة في البناء تدريجياً. ألوان البلاطات بهتت وتغيرت مع مرور الوقت (تحول الأحمر لبني والأخضر تحول لأزرق به بقع بيضاء). البلاطات في الشرفة الخلفية للمسجد هي بلاطات معاد تصنيعها من بلاطات قسم الحريم في قصر طوب قپو، والتي تعرضت للتلف بالنيران عام 1574. وبُني المسجد على 20.000 عامود من السيراميك صنعت باليد.

الأجزاء العليا من المدخل يسيطر عليها اللون الأزرق ولكن بجودة ضعيفة. أكثر من 200 زجاجة ملونة بتصاميم معقدة تتيح الضوء الطبيعي للدخول منها، واليوم يتم الاستعانة بالمصابيح الموجودة في الثريا المتدلية من السقف للمساعدة على الإنارة. كان يوجد في الثريا بيض النعام الذي كان يوضع لمنع العناكب والحشرات وصدهم والتي استخدمها أيضاً سنان في مسجد السليمانية . الزخارف في المسجد تشمل آيات من القران، العديد منها كُتبت بواسطة سيد قاسم غباري باعتباره أكبر وأعظم الخطاطين

في ذلك الوقت. الأراضي مفروشة بالسجاد التي يتم التبرع به من قبل المؤمنين، ويتم استبدالها بانتظام لتعرضها للتآكل. العديد من النوافذ الواسعة الكبيرة تمنح انطباع بالاتساع. النوافذ البابية في الدور الأرضي مزينة بقطع فنية باستخدام فن التزجيج. أما بالنسبة للنوافذ فكل شرقية تحوي 5 نوافذ، بعضهم في بعض الأحيان مصمت؛ كما أن كل نصف قبة وعددهم 3 – والذين يحيطون بالقبة الرئيسية – لديها 14 نافذة، أما القبة الرئيسية فتحوي 28 نافذة 4 منهم مصمتين. الزجاج الملون للنوافذ عبارة عن هدية من سيادة إمارة البندقية للسلطان. أغلبية هذه النوافذ الملونة تم استبدالها الآن بنوافذ حديثة بقليل من أو بدون لمحة فنية تذكر.

أهم عنصر بداخل المسجد هو المحراب المُذهب المصنوع من رخام منحوت بشكل رفيع، حيث يزين أعلاه مقرنصات ولوحتين عليهما آيات من القرآن الكريم. الجدران المجاورة للمحراب مكسوة ببلاط السيراميك، ولكن العديد من النوافذ المحيطة بها جعلتها تبدو أقل روعة. على يمين المحراب نجد المنبر الذهبي المزخرف بأناقة الذي يعلوه شكل مخروطي. المسجد مصمم بطريقة بحيث يستطيع كل المصلين حتى في أوقات احتشاد المسجد وامتلائه بالكامل أن يروا ويسمعوا الإمام.

الجناح السلطاني يقع في الركن الجنوبي الشرقي للمسجد، وهو يضم منبر ولوجيا وحجرتين صغيرتين للمقيمين في المسجد. تستطيع من الجناح السلطاني الوصول للمقصورة السلطانية في الجزء العلوي من المسجد. أصبحت حجرتين الإقامة في المسجد هي المقر الرئيسي للصدر الأعظم في أثناء العمل على إخماد تمرد الفيالق الإنكشارية عام 1826 في عهد السلطان محمود الثاني. نجد المقصورة السلطانية قائمة على عشر أعمدة رخامية، تحتوي على محراب خاص بها مُزين بأحجار اليشم الكريمة الوردية والذهبية بالإضافة إلى 100 نسخة من القرآن موضوعة على حاملات مصاحف مُطعّمة ومذهبة.

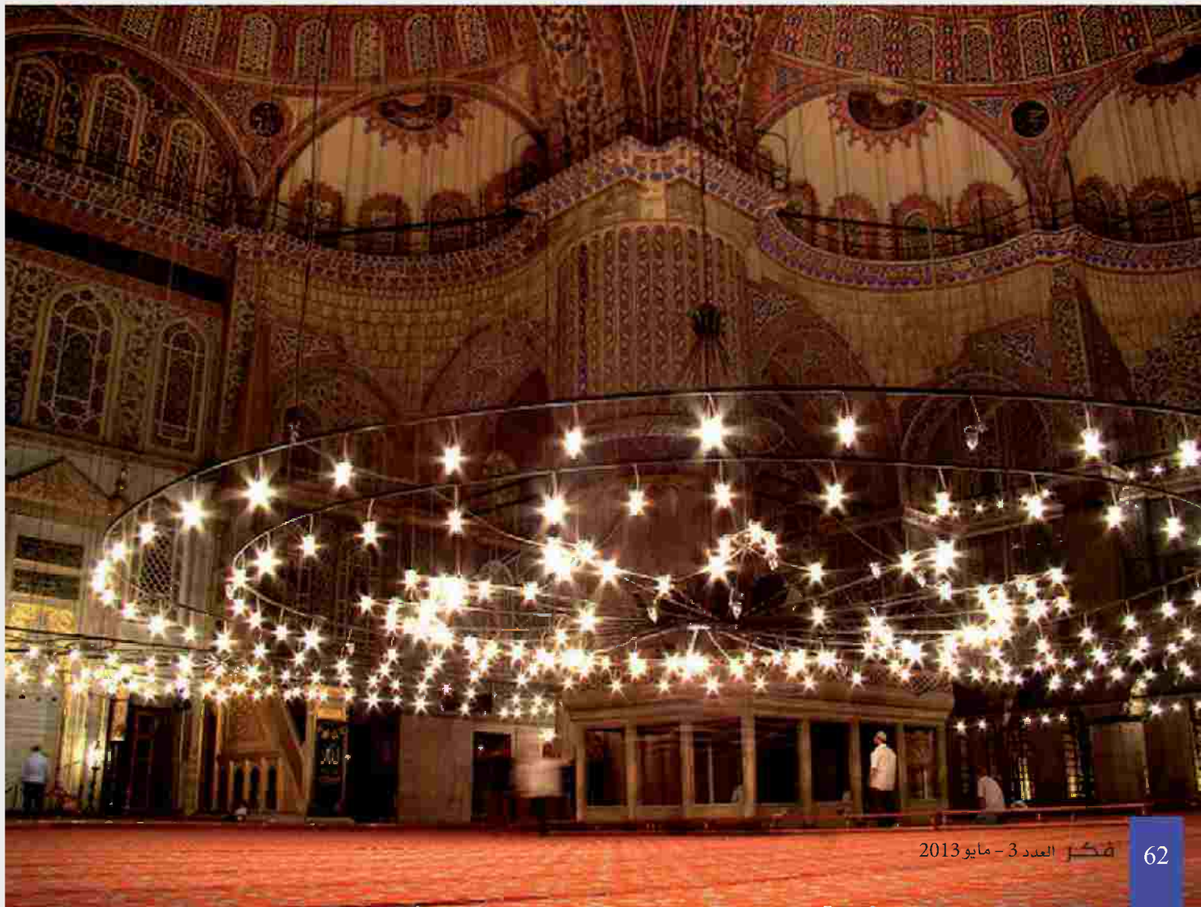

العديد من المصابيح بداخل المسجد مغطاة بالذهب والأحجار الكريمة وبين السلطانيات الزجاجية تستطيع أن تجد بيض النعام والكرات الكريستالية كل هذه الزينة قد تم إزالتها أو سُلبت لتوضع في المتاحف.

الأقراص الكبيرة الموجودة على الجدران منقوش عليها أسماء الخلفاء الراشدين وبعض آيات من القرآن الكريم وذلك بواسطة أعظم خطاطي القرن السابع عشرأحمد قاسم غباري وتم إعادة ترميمهم مرات كثيرة.

المنارات:

العديد من المرشدين السياحيين كثيراً ما يُخبرون السياح بقصة عن منارات المسجد على الرغم من عدم صحتها: أن مسجد السلطان أحمد هو أحد مسجدين موجودين في تركيا لديهم 6 مآذن. المسجد الأخر هو مسجد صبانجي المركزي في أضنة. وحين أعلن عن عدد مآذن المسجد المزمعة، ثارت انتقادات لتساويها مع عدد مآذن المسجد الحرام بمكة. فأمر السلطان أحمد بإضافة المئذنة السابعة للمسجد الحرام تعظيمًا له، ليزيد على مسجده بمئذنة. ولكن الحقيقة أن المسجد الحرام كان له بالفعل 7 مآذن قبل قرن من تشييد المسجد الأزرق.

هناك أربع مئآذن تقف في زوايا المسجد. كل واحدة من تلك المآذن التي تأخذ شكل القلم الرصاص تحتوي على ثلاث شُرف مزينة بطنف من الأسفل. أما المئذنتان الباقيتان اللتان يقعا في نهاية الساحة الكبيرة فبهما شُرفتان فقط.

في الماضي كان على المؤذن أن يتسلق السلم الحلزوني 5 مرات في اليوم لينادي إلى الصلاة، أما اليوم فيتم إستخدام السماعات، حيث يستطيع الأفراد سماع الآذان في الجزء القديم من المدينة، كما يُستطاع سماع ترديد الآذان من مساجد في الجوار. ويستمتع الأتراك والسياح بسماع أذان صلاة العشاء في الحديقة المواجهة للمسجد عند غروب الشمس وبجمال الأضواء التي تضيء المسجد ليلاً.

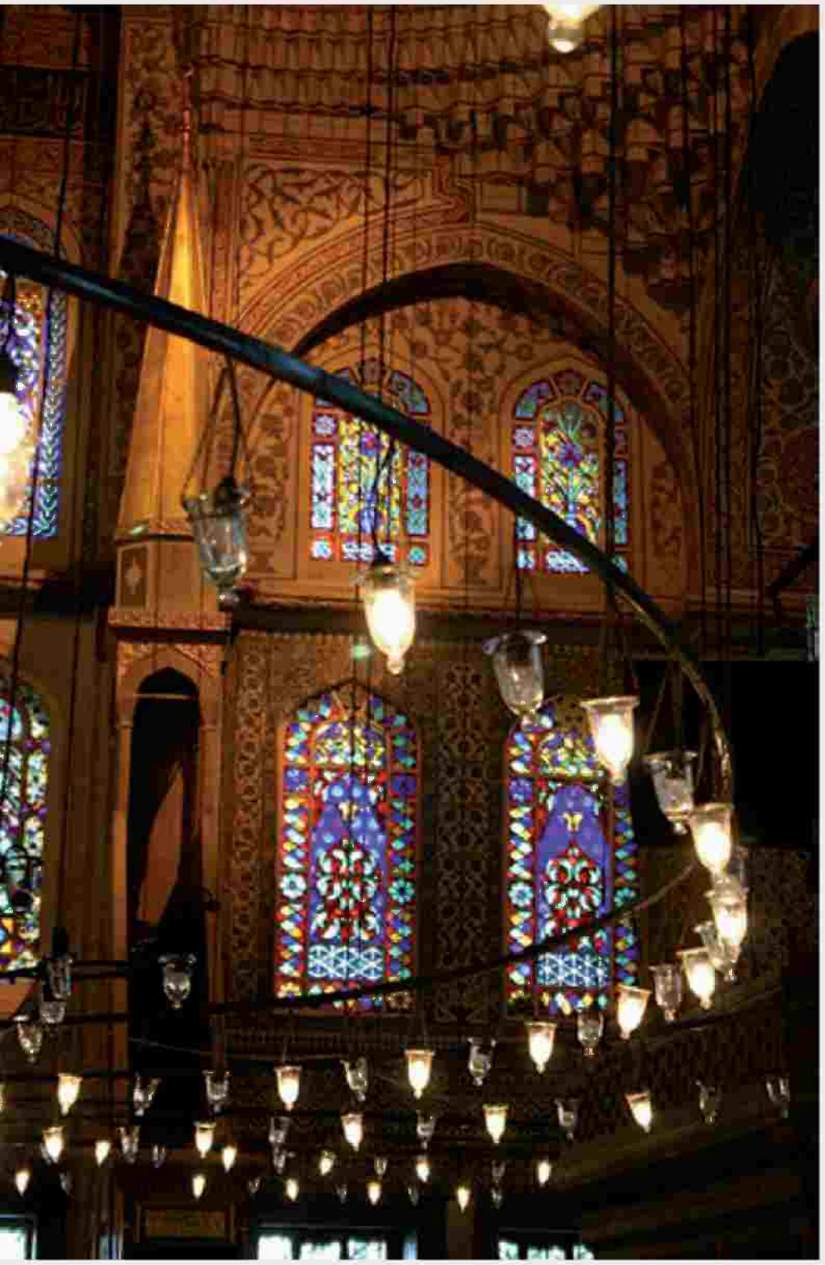

ومن ضمن الشخصيات العالمية التي زارت زارت جامع السلطان أحمد الرئيس الأمريكي باراك أوباما عندما قام بزيارة لتركيا في 6 نيسان/أبريل 2009 قادماً من العاصمة التشيكية براغ أثناء مشاركته في قمة جمعته مع قادة 27 دولة في الاتحاد الأوروبي، حث فيها قادة دول الاتحاد الأوروبي على قبول انضمام تركيا عضواً كاملاً في الاتحاد. وكان اوباما في اليوم الثاني الأخير من زيارته الرسمية لتركيا التقى بمجموعة من علماء الدين المسلمين ورجال الدين المسيحيين واليهود. كما قام بجولة في عدد من معالم اسطنبول السياحية والدينية بينها المسجد ومتحف آيا صوفيا.

لمشاهدة الفيلم الوثائقي عن جامع السلطان أحمد في اسطنبول إضغط هنا